

سيرة جديدة للتمرد

أعتقد ان الذات التي تنتج الشعر الان، أصبحت ذاتاً مهددة ، لاتشعر بثقة في المستقبل. تحولت إلى ذات اجتماعية مهمومة أكثر منها ذات شعرية متجاوزة. هناك تحول في السياق الذي تتحرك داخله الذات الشاعرة ، فلم تعد من أولوياته هذا النوع من التفسير والتأويل للحياة. حدث انفصال بين الشعر والسياق الاجتماعي الذي يحوطه، وفقدت الثقافة شعريتها وقدرتها على التخيل. ربما يكون الخطأ مزدوجاً، أن تشعب وتعقيد السياق الاجتماعي أصبح فوق احتمال أدوات الشعر وقدرتها على الاستيعاب. وكذلك فإن الأدوات الشعرية لم تتطور لتعبر عن لحظة راهنة عشوائية.

وكما أن ثقافتنا لم يعد لها ثوابت أو محاور ارتكاز؛ أصبح من الصعب تثبيت اشكال شعرية بعينها وضمان استمرارها. لأن الشكل الشعري ، والنثرى بوجه خاص، هو الأكثر حساسية وتأثراً لغياب الثوابت التي كان يبني عليها شعريته.

نشأت قصيدة النثر العربية في ظل مرجع تنويرى أو جذرى. ليس المعنى فقط هو ما كان جذريا ، بل اللغة أيضاً. كانت اللغة هي إحدى طرق التغيير ، فالمجتمع بشكل ما كان يسكن اللغة، وأى جديد فى تراكيبها وعلاقاتها ، قادر على أن يصل إلى ذائقة وحساسية المجتمع. بتلاشى هذا المرجع النقدى ، تحت ضغط الحياة الحديثة واليأس من التغيير؛ فقدت قصيدة النثر أهم مراجعها، أو المجال الذى تتحرك فيه اللغة الشعرية، المجال الذى كان يمنحها الشكل.

اعتقد أن النماذج المبهرة لقصيدة النثر ، والتي ظهرت فى الستينيات والسبعينيات ، برغم عدائها للتفسير الكلى والشامل للفرد ، إلا أنها استفادت من هذه العدائية . فقد ساهمت هذه النماذج ، بحسها النقدى ، فى خلق نموذج جديد ضد النموذج السائد. لا أعرف الآن ماهو النموذج الذى يجب الوقوف ضده، وكيف نكون الوعى النقدى؟

الثقة التي منحها المجتمع للغة، وبالتأكيد للأدب وأشكاله المختلفة؛ عاد مرة أخرى ليسحبها، بعد التيقن بأن اللغة وتجلياتها غير قادرة على التغيير، ولا يمكن أن تكون بديلاً عن الحياة. لأعرف لماذا كانت المقارنة تقوم ، فى الأساس، بين اللغة والحياة؟ ربما هو مازقنا المعرفى، أن ننشئ ثنائيات ، كل طرف فيها مهم وعلينا أن نختار بينهما. الأدب بكل أشكاله يقف فى موضع الاتهام والمساءلة والحساب، وخاصة الأنواع الادبية التي كانت تحمى نموذج المتمرد. كل هذا تم فى صمت وبدون ضجة، أعنى أن سحب الثقة تم تدريجياً وبدون تعمد .

رغم فداحة الأزمة التي تعيشها مجتمعاتنا، إلا أنها غير ممثلة بحق في الانواع الادبية، وتحولت الازمة داخل النصوص إلى إطار سميك من الاحباط واليأس. فمن أين تستعيد أى لغة نشاطها وفلسفتها وهي غائبة عن التعبير عن الأزمة وتقنيدها.

كذلك ، الحوار، بمعناه الواسع، أصبح غائباً، وما يوفره من تعدد هام لأى شكل أدبي. فالحوار هو المكان الخام الذى تستمد منه أى شعرية وجودها. وبرغم أن قصيدة النثر غير حوارية بمعناها الفردى أو غنائية بشكل ما ، إلا أنها لا تتحقق ولا تستمد قوتها إلا وسط حوار دائر حولها. حتى لاتصبح غنائيتها أو وحدتها مضاعفة.

تعطل وغياب الحوار جعل أى نوع أدبي، وحديث كقصيدة النثر، يفقد جزءاً من مهنيته وتقنيته. فلم تعد هناك اسئلة وقضايا مثارة حول الشكل الأدبي ، وبالتالي لم تضاف أى تفسيرات جديدة على هذا النوع . بالتأكيد أصبحت قصيدة النثر الآن هي الشكل المسيطر ، ولكنها سيطرة هشّة ، نظراً لغياب التاصيل النقدي.

اقصد النقد بمعنى التدقيق والتصنيف واشاعة جو حيوى وخلافى من القضايا. كل هذا هام لخلق نوع من الأحاسيس العلمية اللازمة لأى تأسيس أو استمرار. هذا النوع من النقد سيضع قصيدة النثر فى حجمها الطبيعي ، ويفسر هذه السيطرة التى دانت لها ، وهل هذه السيطرة تعبر عن حادثة تعبيرية ، وكيف نجا هذا النوع الأدبي من عشوائية حداثتنا ، إذا جاز التعبير. وهل أصبحت قصيدة النثر شكلاً مفرغاً من فاعليته؟

بالرغم من كل هذه العوامل المضادة للشعر والشعرية ، فمزال هذا النوع من التعبير، أياً كان شكله ، مثار اهتمام. حتى ولو كان اهتماماً نخبياً يرتبط فقط بمن يكتبونه. الكل يتفق على أهمية الشعرية، وامتدادها فى أكثر من نوع أدبي وفنى . فمصدر هذه الشعرية هو الشعر، هو الذى أوحى بهذا الشكل من التعبير المحمل ، لذا فهو مشارك أصيل فى أى لحظات تحول . الشعرية مثار سؤال دائم ، ربما هى أحد الأماكن الكثيفة لتمثل الإنسان ، والتي لن ينازعها فيها نوع أدبي آخر. ربما يطراً سؤال ، وهل من المهم الآن وجود هذا الشكل الكثيف واللامرئى لتمثل الإنسان؟ إذن الصراع الان مع الوضوح الذى تطرحه الفنون البصرية ومدى سطوتها، لأنها تصنع تمثلاً سطحياً وعبيراً للإنسان، ليس لأنها غير جيدة ، بل لارتباطها بوسائل الانتاج الضخم. وهنا أهمية الشعر والشعرية ، أن تصنع تمثلاً عميقاً للإنسان وغير مستهلك ، وأى نوع أدبي آخر له نفس الجدارة سيكون له الاستمرار.

الشعر والشعرية شاركا فى لحظة تأسيس وعى الإنسان بنفسه وبالوجود ، وانعكاس صورته فى مرايا مكتوبة حوله. الذين كان أحدى هذه المرايا، والشعر والكتابة والفن مرايا أخرى ، تشترك

فى نقاط وتختلف فى أخرى.ولكنها جميعاً شاركت فى لحظة التأسيس ، باختلاف الترتيب الزمنى ، فوعى الإنسان مازال يتشكل حتى الآن مع كل وسيط أو نوع أدبى أو فنى جديد. لذا فأى ضعف يصيب إحداها سيؤثر فى الأنواع الأخرى ، ومنها الشعر والشعرية.

ربما سيختفى الشعراء ، ولكن ستبقى الشعرية . وهذا الاختفاء سيأخذ زمناً حتى يحدث ، فمازلنا داخل عصور يشغلها الوعى الباطنى للفرد ومكان سؤالها.ربما لن ينازع الشعر نوع آخر يرى فيه الإنسان نفسه ، بهذه الدقة والرقّة ، والرهافة . لقد اختزن الشعر نموذجاً نوعياً لايسهل التفريط فيه. فليست المشكلة أهمية أو عدم أهمية الإيقاع ، فتلك امراض النوع الأدبى ، لأنه وسيط ضارب فى الغور ، فسيعكس أزماته وأمراضه على المجتمعات المؤمنة به.

ربما يكون الشعراء غير ممثلين لمجتمع ، ولكنهم ممثلين لنوع أدبى هام. وهذا النوع ، حتى ولو لم يلتفت له المجتمع كله ، فهو أحد أركانه اللامرئية التى تشارك فى صياغة مزاجيته، ووعيه بنفسه. الشعر كمخزن للرموز ولنشاط اللغة ولصور الإنسان ، من الصعب أن يمتلك نوع آخر تلك الصفات، ويعكس مايعكسه الشعر.

ربما ما حفظ قصيدة النثر حتى الآن هى تقنية الحكى، وهى التقنية التى أتت من حقول أدبية أخرى. أصبحت الحكاية هى بوصلة القصيدة لضبط الشكل والنفس الشعرى. أعتقد أن المستقبل ، بمعنى ما، سيرتبط بهذا النوع من السرد الحكائى.

ستستمر قصيدة النثر بانفرادات شخصية ، بموهبة شعراء وحدهم ، وعمق أسئلتهم الوجودية، ووعيمهم كذلك بخصوصية الشكل الشعرى الذى يعملون داخله. إذا كان نموذج التمرد الذى تمحورت حوله قصيدة النثر من قبل، سواء كان التمرد الحياتى أو اللغوى ، فنشاطها الحالى ومشروعيتها ، كنموذج نقدى بالأساس، هو إيجاد سيرة جديدة للتمرد، بمعناه الانسانى والوجودى وليس السياسى فقط ؛ كمقاومة أخيرة ضد غياب الفرد وموته المتعمد والمجانى والصامت.

علاء خالد